الفصل الأول:

بالون المراقبة

تعلقت عينا عمر ببالون المراقبة الذي ***كان يحلق عالياً في السماء، يراقب بصمت كل حركة على الأرض***، *كعينٍ لا تنام*.

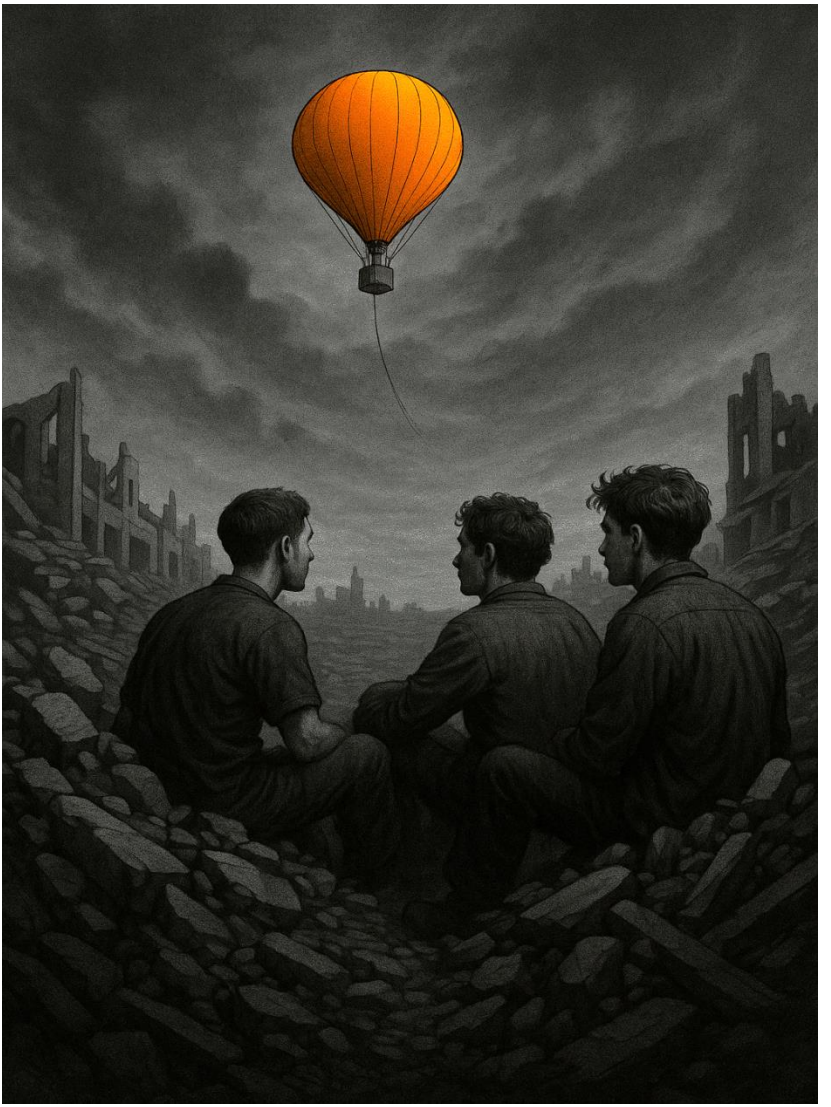

ظل يحدّق فيه بنصف وعي، وكأنما يستغرق في معنى وجوده، قبل أن يفيق فجأة على وخزة مرفق صديقه وائل، الذي كان يجلس إلى جواره، وهو يمد إليه عقب سيجارة متآكلة قائلاً بابتسامة باهتة:

ـ خذ، لكن تذكّر... في المرة القادمة أنا من سينال آخر نفس.

كانت تلك السيجارة قد مرّت بين أيديهم الثلاثة: وائل، وشادي، ثم عمر، في طقس بات مألوفاً بينهم، طقس الفقر والحرمان الذي يلزمهم على تقاسم حتى متعة صغيرة مثل سيجارة. تناولها عمر بوجه جامد، من غير أن يرد بكلمة أو حتى يلتفت إلى صديقيه ليؤكد الالتزام بالقانون الصغير الذي وضعوه بينهم حول عدد الأنفاس، أو "الحصص" كما كانوا يسمونها. هذه المرة لم يكترث بالقواعد، ولم يحاول حتى النظر في عيون رفاقه ليتأكد هل تجاوز الحد أم لا.

أخذها، وضعها بين شفتيه، وبدأ يسحب الدخان ببطء شديد، بنهم غريب، وكأنما يحاول ابتلاع جزء من الفراغ الذي يلتهمه داخلياً. كان يمصها بعمق، يزفرها ببطء، دون أن يلتفت لرفيقيه اللذين جلسا بجواره، يراقبان مثلهما مثل الجنود الحالمين، الجنوب البعيد. هناك، في الأفق، ارتفعت البوابة العملاقة التي فصلت ولايتهم "فام" عن جارتها الجنوبية "ميدال"، الولاية الأوسع أرضاً والأغنى رزقاً، والمحرّمة على أمثالهم.

كان الأصدقاء الثلاثة أبناء جيل واحد، نُحتت ملامحهم من طينة الفقر وعُجنوا بماء البؤس. وجوههم الشاحبة، أجسادهم المنهكة، كانت كلها شاهدة على عمرٍ لم يُعاش كما ينبغي. حتى حيويتهم، التي كان يفترض أن تصرخ بشبابهم، لم تكن تظهر إلا في لحظات عابرة وسريعة، مثل فقاعات صغيرة تطفو فجأة على سطح ماء راكد، لتختفي بعد لحظة وكأنها لم تكن.

كانوا جميعاً في منتصف العشرينيات من أعمارهم، متشابهين في المصير أكثر من الملامح، إذ وحدهم الفقر والخذلان والواقع القاسي. ومع ذلك، كان بينهم تمايز واضح لا يخفى على من يراهم:

عمر، الشاب الأطول قامة والأكثر وسامة، بدا وكأنه يجمع بين صفات متناقضة، تجمع الخير والشر في آنٍ واحد. كان يحمل في قسماته شيئاً من الهدوء المهيب الذي يُشعر من ينظر إليه بوجود قائد بالفطرة.

أما وائل، فانعكست عليه ملامح الطيبة ودماثة الخلق، كان أكثرهم حناناً وعاطفة، غير أن هذا اللين لم يخلُ من عناد خفي، ونزق مفاجئ يجعله أحياناً يقفز فوق المألوف.

ثم شادي، الوجه الثالث للمثلث، كان يحمل في داخله ظلّاً من الشرّ الماكر، نزوعاً فطرياً إلى الخداع والمكر، وعشقاً للعب على الحوافّ، إلى حد الجنوح لارتكاب الحماقات.

لقد كانوا معاً لوحة بشرية متناقضة، امتزجت فيها الطيبة بالدهاء، والهدوء بالعنفوان، والوفاء بالمكر. ورغم اختلاف طباعهم، إلا أن رابطاً خفياً جمعهم، وكأن القدر صاغهم ليكمل بعضهم بعضاً.

جمع القدر بين عمر ووائل وشادي في ظرف استثنائي، عقب آخر محاولة ثورية كبرى خاضها أبناء "فام" ضد ظلم الوالي هاني الشال. لم يمضِ شهر واحد على اندلاعها حتى أُخمِدت بوحشية نادرة، فخلّفت وراءها مئات القتلى وآلاف المعتقلين، وحولت أحلام الناس بالحرية إلى رماد. كانت ثورة شعبية مكتملة الأركان، لكنّها تحولت في ساعات إلى مقصلة مفتوحة: مجازر في الساحات، اعتقالات عشوائية في الأزقة، وطلقات رصاص باردة تطال كل من تجرأ على المطالبة بعزل الوالي.

في ذلك اليوم الأسود، لم تُهدَم البيوت فقط، بل هُدمت معها أرواح ساكنيها. آلاف الأُسر شُرّدت، وتحوّل الحيّ الواحد إلى مقبرة مفتوحة. صار التاريخ نفسه شاهداً على يومٍ لا يمكن للفاميين نسيانه، يوم انغرز في ذاكرتهم مثل ندبة أبدية.

كان وائل أحد أبرز الضحايا غير المباشرين؛ فقد عائلته كاملة في مجزرة من تلك المجازر. لم يتبقَّ له إلا جدته العجوز، التي بات يعيش معها، يحمل في صدره جمراً من الغضب، وحلماً بالثأر يكبر كل يوم.

أما عمر، ففقد والده، وضربت المأساة أسرته من جديد حين خسر اثنين من أشقائه: أحدهما اعتقل وحُكم عليه بالسجن لسنوات طويلة بتهمة المشاركة في الثورة، بينما ذاب الآخر في صفوف المقاومة سرّاً، فانقطعت أخباره حتى صار في نظر أهله أشبه بالميت. والدته، التي أنهكها الخوف، منعت عمر من محاولة البحث عنه، خشية أن يلتحق هو الآخر بالمقاومة، أو يختفي بدوره، فينكسر قلبها مرة أخرى. فضّلت أن يبقى بجوارها مهما كلف الأمر، حتى وإن كان ذلك يُغضبه، ويدفعه إلى الهروب من البيت لساعات أو أيام، هائماً على وجهه بين الأزقة المهدمة، أو جالساً فوق أنقاض الخراب، قبل أن يعود متعباً جائعاً، فيسقط نائماً بلا مقاومة.

لقد صاغت تلك الأحداث مصائرهم، وجعلت من لقائهم الأول أكثر من مجرد صدفة؛ لقد كان انعكاساً لجرح مشترك، حملوه جميعاً في أرواحهم.

أما شادي، فقد كان قصته مختلفة جذرياً عن رفيقيه. لم يكن يملك أسرة تُذكر، ولا جذور يفتخر بالانتماء إليها. ولد مجهول النسب، فعاش منذ طفولته في كنف امرأة ماجنة، عُرفت بين الناس بكونها مومساً، لكنها رغم قسوة حياتها احتضنته وربّته كابن لها. لم يعرف له أباً ولا أماً حقيقيين، بل عاش تحت لقب جارح ظل يلاحقه أينما ذهب: "ابن العاهرة."

ورغم قسوة هذا اللقب، لم ينكسر شادي، بل طوّع قسوة الحياة لصالحه. تعلم كيف يتأقلم مع كل شيء، كيف يبتسم في وجه الشتائم، وكيف يجعل من واقعه المرير درعاً يحميه. كان سريع التفاعل مع ما حوله، مثل أمه بالتحديد، تلك المرأة التي وإن كانت غارقة في حياة الدعارة، إلا أنها لم تخجل أحياناً من أن تسجل موقفاً وطنياً في دفترها الملطخ. كانت تُخفي في بيتها بعض المطلوبين الهاربين من جنود الوالي، أو توفر لهم المأوى في الماخور الذي تديره. وربما كان ذلك التناقض الغريب فيها هو ما ترك بصمته في قلب شادي، فأورثه شيئاً من الجرأة، وشيئاً آخر من الحيلة.

وذات ليلة عصيبة، بعد إخماد الثورة وفرض قانون الطوارئ وحظر التجوال